التاريخ واللهجة المغربية في دراسات المستشرقين

■ عبد العالي احمامو (*)

- ١ -

الإرهاصات الأولى للاستشراق بالمغرب

لما كان المغرب آخر معقل إسلامي وإفريقي سقط في مخالب الاستعمار، بعد أن ظل ردحا طويلا من الدهر يعيش في الاستقلال، صارت الأطماع الأجنبية تتجه نحوه من لدن الدول المتنافسة التي كانت خلافاتها عليه فيما بينها مؤجلة لساعة الاحتلال. فكانت عزلته ذات جاذبية خاصة بحيث غدا سرا من الأسرار. وهذا ما حدا بأهل أوربا وحكوماتها وجمعياتها الجغرافية والعلمية، وغرفها التجارية إلى أن تعمل على فتح أبوابه لها ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، فتقاطر عليه الرحالة وعشاق المجهول، ودب إليه من دبيب أموال الشركات والدور الاقتصادية، وهب إليه عملاء الدول ورجالها وضباطها وقناصلها ونوابها وأطباؤها من أجل الإقامة فيه والسفر

(*) باحث بسلك الدكتوراه ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة ابن طفيل ـ القنيطرة ـ المغرب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إليه. وهكذا كتبوا يصفون ما شاهدوه ودونوا عنه وعن الشرق أيضا ما تزخر به اليوم المؤلفات والمكتبات. وكانت كتاباتهم تتخذ سمة حضارية وعمرانية، أو صبغة سياسية وعسكرية، أو طابعا علميا ومعرفيا، أو صفة رومانسية وأدبية[١].

فقد حظي المغرب بنصيب وافر في الدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأنه غني بما يزخر به من تراث حضاري هائل، لا سيما أن مركزه الجغرافي ووضعه بين الأمم الأخرى جعل منه بلدا إفريقيا وبلدا عربيا وبلدا مسلما له حضور قوي في القارة الأوروبية، ومن ثم كان محل اهتمام من لدن الذين تشغلهم إفريقيا، وممن يهتمون بالعالم العربي والإسلامي، وأخيرا من الذين يولون عنايتهم للعلاقات السياسية التي شدت أوروبا للمغرب[٢].

ومما لاشك فيه أن الفكر الاستشراقي بدأ يبحث عن نفسه نتيجة صدام حضارتين كُتب لهما أن تنشآ وتزدهرا في رقعة جغرافية متقاربة، كل منهما أنتجت أو اعتنقت ديانتين سماويتين أو ثلاث ديانات سماوية إبراهيمية متقاربة في الإيمان بالله، وكل منهما أسهمت في دراسات تتصل بالإنسانيات وبالحضارة الفكرية ممتزجة بالدين، مستندة إلى حضارة أقدم ظهرت في منطقة متوسطة بين هاتين الحضارتين هي الحضارة اليونانية مطلة علينا من خلال منظورها الفكري والفلسفي والأدبي والأسطوري، ناقلة لتراثها مضيفة إليه بعدا جديدا مرتبطا بالإسلام، مبلغة هذه الرسالة الفكرية الحضارية إلى الغرب أو ما يمكن أن يسمى اليوم الشمال[٣].

لقد أقام كثير من الأجانب ببلادنا ابتداء من القرن التاسع عشر، وتجولوا بربوعه الدانية منها والقاصية، وحرروا في ذلك تآليف ومقالات ومذكرات وتقارير نشرت بشتى اللغات، تختلف قيمتها باختلاف قدر أصحابها، فكانوا تارة يبررون بها طروحاتهم إن كانوا مبعوثين من الهيئات التي كلفتهم بها، وتارة أخرى يرضون بكتاباتهم هواجسهم ويسكنون بها همومهم إن جاءوا لأغراض شخصية. ولنا هنا أن نعتمد تساؤل مصطفى بوشعراء؛ أن رب سائل يقول: متى يجوز الركون إلى صحة ما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كتبه الأجانب المستوطنون والرحالة العابرون عن المغرب في العهود الماضية؟ وما هي شروط الاعتماد عليهم؟ ومن هم هؤلاء المستوطنون الذين قدر لهم أن يكونوا شهودا محظوظين وراصدين للتطورات والتفاعلات التي طرأت على المجتمع المغربي في وقتهم(٤)؟

لاشك في أنّ الإجابة على مثل هذه الأسئلة وغيرها تقتضي منا المقاربة العلمية والتصور الدقيق الذي لا يشوبه شعور بمركب الاستعلاء، ولا إحساس بنقيصة الاستخذاء. فرفض الأعمال والدراسات جملة وتفصيلا فقط لأنها من المستعمر والمتدين غير الدين الإسلامي، والسماح في مجمل ما خلفوه لن تكون نتائجه سوى التفريط في كنز ثمين يغنى جميع الحقول المعرفية والعلمية بالمغرب، لأن من المفارقة أن لا يطلع المغاربة عليه وعلى غيره من تراثنا إلا بعد انصرام قرن من الزمان، كما لا يُسمح بقبول جميع الأعمال من دون تمحيص ولا تدقيق، بل يجب وزنها بميزان العلم والمعرفة للإفادة مما جادت به كتبهم، والتصحيح والتنبيه لما عاب بين دفتي دراساتهم.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى بعض ما ترجمه المستشرقون متعلقا بالمغرب بخاصة فضلاً عن الترجمات المتعددة للقرآن الكريم. ومن الكتب المهمة المتعلقة بالمغرب ترجمة (مقدمة ابن خلدون) التي نشرها وترجمها كاتْرُمير (١٧٨٢-١٨٥٢)، ثم دوسلان (١٨٠١-١٨٧٨) سنة ١٨٧٢م. ومن المهم أن نشير إلى أن نشر هذين المستشرقين ل(المقدمة) وترجمتها هو الذي لفت إليها أنظار العرب أنفسهم. ولم يعرف ابن خلدون ولم ينل اهتمام العرب إلا بعد عمل المستشرقين. ومن الكتب التي ترجمها المستشرقون كذلك؛ نجد (فتوح شمال إفريقيا والأندلس) لابن عبد الحكم، وقد ترجمه كاتْوين سنتي ١٩٣١ و١٩٣٩م، ثم حققه ونشره سنة ١٩٤٨، و(مذكرات الأمير عبد الله) آخر ملوك غرناطة نشرها وترجمها ليفي بروفانصال بين سنتي ١٩٣٦ و١٩٤٠م، و(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي نشرها جوبير متنا وترجمها في جزأين سنتي ١٨٣٦ و١٨٤٠م، و(تحفة النظار) لابن بطوطة نشره متنا وترجمه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سانغينتّي وطبع طبعات عدّة بين سنتي ١٨٥٣ و١٨٩٥م، وما سواها من الكتب المتصلة بالمغرب أو المغرب الإسلامي عموما[٥].

فقد اهتم المستشرقون بدراسة المجتمع المغربي في تقاليده وحياته واحتفالاته الدينية والتقليدية، وأسواقه وصناعاته وبيوته، وحتى تقاليد نساء فاس على سطوح المنازل في ربيع المدينة وصيفها. إذ نجد في هذا الميدان كثيراً من الأبحاث والدراسات منها دراسة شارل لوكور عن الاحتفالات الدينية وآثارها، واحتفالات العبور في زمُّور. وقد اهتم لوكور بما يسميه تعليم علم الاجتماع المغربي فكتب عن نصوص علم الاجتماع والمدرسة في المغرب. وكتب ألفرد بِلْ ـ الذي عني بفاس وترجم "زهرة الآس" ـ عن صناعة الخزف في فاس وعن صناعات العرب واليهود في شمال إفريقيا. كما كتب بوريّي عن الاحتفال بمقدم السلطان إلى الرباط. وكتب ميشو بللير عن عادات البربر عند قبائل العرب وعند البربر في المغرب[٦].

ونورد فيما يأتي أبرز العملاء والرحالة والمؤلفين عن مغرب القرن التاسع عشر، ممن ينتسب لألمانيا وإنجلترا وإسبانيا وفرنسا وبلدان أخرى[٧].

❖ من ألمانيا:

هينريخ بارت: H .Barth (١٨٢١ ـ ١٨٦٥) ولد بهامبورغ، وتعلم في جامعة برلين حيث تخرج عام ١٨٤٤. زار في وقت سابق إيطاليا وصقلية فشكل خطة للقيام برحلة عبر بلدان المتوسط، وبعد دراسته العربية في لندن بدأ رحلاته عام ١٨٤٥م. ومن طنجة شق طريقه عبر أراضي شمال إفريقيا، ثم شق طريقه من النيل إلى وادي حلفا وعبر الصحراء إلى البرانس. وقد درس بدقة جغرافيا المناطق التي زارها ودرس تاريخها وحضارتها ومواردها. ونُشرت قصة رحلاته بالإنجليزية والألمانية بعنوان "رحلات واستكشافات في شمال ووسط إفريقيا" (١٨٧٥ ـ ١٨٥٩ في خمسة أجزاء)، وكان به من الدقة والتنوع والمعلومات ما قل نظيره عن كتب عصره[٨].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبعد وصوله إلى طنجة في غشت ١٨٤٥م زار كلا من تطوان وأصيلة والعرائش وغيرها ووصل إلى تمبوكتو، ونشر عن تجارة السودان مع المغرب كتابا في أربعة أجزاء طبع سنة ١٨٦٣. كما دخل مدينة الرباط سنة ١٨٤٥، ولما كان يرسم باب قصبة الأوداية تعرض لسب وتهديد من السكان على الرغم من ترخيص قائد المدينة له بالتصوير(٩).

ـ **مصطفى العلج أو فريدريك كيرهاردت رولفس:** F.Gerhardt Rohlfs ولد بمدينة بريمن سنة ١٨٣١ ومات سنة ١٨٩٦ أو ١٨٩٨. فبعد أن تعلم الطب ببلاده دخل إلى الحياة العملية سنة ١٨٥٣ وانخرط في اللفيف الأجنبي سنة ١٨٥٥م، ثم رحل إلى الجزائر حيث تعلم اللغة العربية ودرس تقاليد المسلمين وعاداتهم.

ولما انتهت حرب تطوان جاء إلى المغرب سنة ١٨٦١م، وحاول الدخول في خدمة إسبانيا. ثم لما بلغه أن السلطان راغب في توظيف أعلاج لتنظيم جيشه قرر أن يجرب حظه، فارتدى لباس المغاربة المسلمين، وادعى اعتناق الإسلام، وتسمى بمصطفى، ثم ربط علائق مع الحاج عبد السلام الوزاني، كما دخل في خدمة السلطان بوصفه طبيبا.

غير أنه لم يلبث أن غادر طنجة سنة ١٨٦٢م متنكرا، وقام بجولته الأولى بالمدن الشاطئية حتى أكادير، ومنها التحق بسوس وتارودانت ومراكش وواحات درعة وتافيلالت وفكيك.

فقد كان مرموقا ببلاده وبالجامعات الأوروبية لطول باعه، ونال حظوة بعض ملوك أوروبا، كما كان مراسلا لعددٍ من الصحف، وله تصانيف عن البلدان التي زارها طبعت بمدينة بريمن سنة ١٨٦٨م و١٨٧٣م. ومن كتبه "وزان، دار الضمانة"، وفيه قال:" إن كل مجهود للنصرانية (أي للحضارة) كان معرقلا في البلدان المتوسطية من لدن إنجلترا، لأن تجارتها في السكر والشاي والأفيون والمنسوجات القطنية تتضرر من ذلك"(١٠).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ **أوسكار لنس Oskar Lenz**: رحالة وعالم جيولوجي وجغرافي ألماني أو نمساوي، ولد بليبسيك سنة ١٨٤٨م، وقام برحلة إلى السودان وعبر الجنوب المغربي، بعد أن تعلم اللغة العربية وعوائد المسلمين. وصل إلى طنجة في نونبر ١٨٧٩ وزار كلا من تطوان وفاس ومكناس وغيرها.

وفي السنة الموالية ساح بالجنوب المغربي سياحة لفائدة "الجمعية الإفريقية بألمانيا" قادته إلى مراكش عن طريق فاس ومكناس والرباط، ثم صعد إلى جبال الأطلس، مارا بتارودانت وسوس والصحراء، ودامت الرحلة ثلاثة أشهر قبل الوصول إلى تمبوكتو وأندر. رافقه الحاج علي بوطالب والترجمان الإسباني كريسطوبال بينيطيث C . Benitez الذي كان تعرف عليه خلال مقامه بتطوان والذي كان أحد الذين عاشوا بالمغرب منذ الصبا حتى تعلم اللغة العربية. وأثناء رحلته سمى نفسه الحكيم عمر بن علي.

وقد نشر لنس كتاب رحلته بعنوان "رحلة من مراكش إلى الصحراء والسودان"[١١] المطبوع سنة ١٨٨١م، ذاكرا فيه عيوب الإدارة المغربية، ومطالبا باحتلال البلاد، وقد تُرجم الكتاب إلى لغات عدّة منها الفرنسية[١٢].

❖ من إنجلترا:

ـ **جيمز كري جاكسن J. Grey Jackson** رحالة قدم إلى المغرب صدر القرن التاسع عشر، له كتاب طبع بلندن سنة ١٨١٤ عنوانه " An account of the empire of Morocco »[١٣]

ـ **أرثور ديك بيل بروك** A. de Capell Brook السير بروك تجول بالمغرب سنة ١٨٣٠ و١٨٣١، ودخل تطوان وطنجة والعرائش. له تصنيف عن المغرب وإسبانيا طبع بلندن سنة ١٨٣١ عنوانه « sketches in spain and Morocco »[١٤].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ **سكوط أوكونورفيل** Scott O'connorvil له كتاب ألفه سنة ١٨٤٢ عن معاشرته للحاج عبد القادر بن محيي الدين عنوانه:" يومية إقامة بسمالة عبد القادر وسفريات إلى المغرب والجزائر: Ajournale of a residence in the Esmalia of Abdelkader and of travles in Morocco and Algirrs »[١٥].

ـ **ديفيد أوركهارت** D. Urquhart دبلوماسي ورحالة زار شمال إفريقيا سنة ١٨٤٨، ونشر كتابا في مجلدين بلندن سنة ١٨٥٠م عنوانه: " أعمدة هرقل أو قصة رحلات إلى المغرب وإسبانيا: the pillars of hercules ; or a Narrative of travles in spain and Morocco »[١٦].

ـ **جون بول** J. Ball، **وماو** Maw، **والسير ج د هوكر** J. D. Hooker علماء نباتيون قاموا جميعا سنة ١٨٧١م برحلة دراسية وجغرافية ومروا عن طريق دمنات ودخلوا وادي أمزميز. وأشهرهم هو الأخير الذي له تأليف مشترك مع بول صدر سنة ١٨٧٨ عن جولتهما بالأطلس الكبير، وعنوان الكتاب : "مذكرة جولة بمراكش والأطلس الكبير:

Journal of a tour in Morocco and the Great Atlas »[17].

ـ **أرثور ليرد** A. Leard طبيب زار المدن الشاطئية سنة ١٨٧٢ وأقام بالصويرة ومراكش وطنجة، ورافق السفارة البرتغالية إلى قصر السلطان، وله تأليف في ٣٥٤ صفحة طبع بلندن سنة ١٨٩١م بعنوان "المغرب والمغاربة : Morocco and the Moors[١٨] " لخصه عبد المجيد بنجلون في "جولات في مغرب الأمس: ١٨٧٢"[١٩].

ـ **جوزيف طومسن** J.J. Thomson وصل إلى المغرب في ماي ١٨٨٨م وتجول بالأطلس ونشر سنة ١٨٨٩ كتاب رحلته بلندن في ٤٨٨ صفحة عنوانه: "سفريات إلى الأطلس وجنوب المغرب، قصة ارتياد[٢٠]:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Travles in the Atlas and Southern Moroccon, a narrative of exploration[21].

❖ من إسبانيا:

ـ أستبانث كلدرون Serafin Estébanez Calderon (١٧٩٩ـ١٨٧٩)، أديب رومانسي إسباني متأثر بالثقافة العربية، تعلم اللغة العربية عقب وصوله إلى مدريد سنة ١٨٣٠.

ولما شبت الحوادث في مراكش سنة ١٨٤٤م حتى كادت تؤدي إلى إشعال الحرب بين إسبانيا والمغرب، ألف أستبانت كتابا بعنوان: " متن الضابط في مراكش"، وفيه يقدم للضابط الذي سينخرط في الحرب في المغرب دليلا تاريخيا وجغرافيا لبلاد المغرب، مع وصف دقيق للأحوال الجوية، وللسكان، وللمدن، والعادات والآداب ومعلومات عن الدين الإسلامي، والقوة الحربية، والعلاقات التاريخية بين إسبانيا والمغرب منذ أقدم العصور حتى ذلك الحين.

وثم جانب آخر اهتم به أستبانث فيما يتصل بالعرب والمسلمين في إسبانيا وهو الاهتمام بالأدب "الأعجمي"، أي: الأدب الذي كتبه الموريسكيون بحروف عربية وإن كان باللغة الإسبانية. وقد استنسخ منه مخطوطات عدّة، وقد وصف هذا الأدب الأعجمي قائلا: "إنه أمريكا حقيقية تستحق الاستكشاف"[٢٢].

ـ لافونته Emilio Lafuente Y Alcantara (١٨٢٥ – ١٨٦٨)، مستشرق إسباني وأديب رومانسي النزعة ألف تاريخ غرناطة.

أُرْسِل في سنة ١٨٥٩ إلى المغرب حيث كانت في حرب مع إسبانيا، وذلك من أجل دراسة مجموعة من المخطوطات العربية كانت الحكومة الإسبانية قد حصلت عليها أو ترغب في اقتنائها. فقام بهذه السفرة، وفي سنة ١٨٦٢ صنف فهرسا لهذه المخطوطات طبع في السنة التالية بعنوان: "فهرست المخطوطات العربية التي اقتنتها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حكومة صاحب الجلالة في مدينة تطوان"، وفيه وصف هذه المجموعة المؤلفة من ٢٣٣ مخطوطا عربيا في موضوعات شتى، وبعضها كانت نسخا من مؤلفات معروفة كان الموريسكيون قد أخذوها معهم عند طردهم من إسبانيا، وبعضها الآخر كان في ضمن مكتبات خاصة في المغرب(٢٣).

ـ **فرانسيسكو دي أريسطيراثو** F. de Aresterazu كان يعرف بسيدي عبد القادر بن الجلالي، وكان أستاذ اللغات، تجول بالمغرب في منتصف القرن التاسع عشر وألف عن تاريخه وعوائده(٢٤).

ـ **خوصي ماريا دي موركا إي موكارتيكي:** J. M. de Murga Y Mugartegui أو الحاج محمد البغدادي رحالة ولد بإسبانيا سنة ١٨٢٧م وتوفي بقادس في فاتح دجنبر ١٨٧٦. استوطن المغرب من ١٨٦٣ إلى ١٨٦٦ ورحل عنه، ثم عاد إليه سنة ١٨٧٣ دون رحلته التي نشرت عدة مرات أولها سنة ١٨٦٨م بمدينة بلباو بعنوان: "ذكريات لمسلم من بيتكايا: Recuerdos del moro vizcaino"(٢٥).

ـ **أنطونيو باريخا سيرادو** A. Pareja Serrado أو أبو جبل قام سنة ١٨٦٨ بجولة بالمغرب فزار سبتة وتطوان وفاس وبعض المدن الداخلية وألف كتابا عن "مستقبل إفريقيا"(٢٦).

❖ من فرنسا:

ـ **شارل كوشلي** Ch. Cochelet ألف كتابا روى فيه قصة أسره وحياته بالمغرب لما حرِضَت الباخرة "لا صوفي La Sophie" يوم ٣٠ ماي ١٨١٩ بساحل وادي الذهب بين طرفاية وبوجدور. وقد طبع كتابه بباريس سنة ١٨٢١ في مجلدين بعنوان: "حَرَض المركب الفرنسي لاصوفي Naufrage du brick français La Sophie"(٢٧).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ **أدولف ده كارامان**: A. de Caraman رحالة تجول بالمغرب من أبريل إلى يونيو ١٨٢٥م، وهو ضابط استدعاه قنصل فرنسا بطنجة سوردو لمرافقته إلى فاس لتسليم رسالة الملك شارل العاشر إلى السلطان مولاي عبد الرحمان. وله تقاييد ومذكرات عسكرية عن الجزء الذي تجول فيه بالمغرب نشرت سنة ١٨٤٤[٢٨].

ـ **أوجين دلاكروا**: E. delacroix رسام ولد سنة ١٧٩٨ وتوفي سنة ١٨٦٣. له لوحات شهيرة، كما أن له لوحات رسمها خلال مقامه القصير بالمغرب. وله أيضا دفتر مذكراته طبع سنة ١٨٩٣ بعنوان: "يومية السفر إلى المغرب: Journal de voyage au Maroc"، أما رسالته فقد نشرت سنة ١٨٨٠م[٢٩].

ـ **ري**: Rey نشر سنة ١٨٤٤ كتابه: ذكريات رحلة إلى المغرب: Souvenirs d'un voyage au Maroc[٣٠]، وقد ساح قبل السنة المذكورة فدخل طنجة والدار البيضاء ومكث أسابيع عدة بالرباط كما حل بسلا مرة واحدة[٣١].

ـ **نارسيس كوط** Narcice Cott كان ترجمانا لقنصل فرنسا بالرباط حيث مكث سنة ١٨٥٤ و١٨٥٥، ثم انتقل إلى طنجة وقضى بها سنتين. له تأليف نشر سنة ١٨٥٩م بباريس عنوانه "المغرب المعاصر: Le Maroc Contemporain"[٣٢].

ـ **هنري رينيو**: H. Regnault قدم إلى طنجة يوم ١٣ دجنبر ١٨٦٩، واكترى منزلا بعشرين فرنكا في الشهر وأثثه تأثيثا مغربيا واتخذ لخدمته عددا من المغاربة. وكان يرسم لوحاته المغربية ويبحث عن الموسيقى والفولكلور الوطني ويحضر مهرجانات التبوريدة. حاول أن يتعلم العربية وأن يهتم بالتقاليد والعوائد المغربية[٣٣].

ـ **رنييه باسيه**: R. Basset مستشرق فرنسي من أعضاء المجلس العلمي العربي، اشترك في اللجنة الأولى التي أصدرت دائرة المعارف الإسلامية، ومن آثاره: "الشعر العربي قبل الإسلام". كما ألف " المخطوطات العربية لخزانتين فاسيتين: Les manuscrits arabes de deux bibliothéques de Fés[٣٤].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ **موريس باليلوك**: M. Paléoloque وصف مقامه بطنجة ومراكش في كتابه "المغرب، تقاييد وذكريات: Le Maroc ; notes et souvenirs" نشر سنة ١٨٨٥ التي قدم قبلها إلى المغرب[٣٥].

ـ **ترّاس** Henri Terrasse (١٨٩٥ـ١٩٧١)، عالم بالآثار الإسلامية في مراكش والأندلس. عين مديرا للدراسات في الآثار الإسلامية بمعهد الدراسات العليا بالمغرب، واستمر في هذا المعهد حتى سنة ١٩٥٧، وأصبح فيما بعد مديرا لهذا المعهد سنة ١٩٤٣، وقد قام بنشر منشوراته في هذه الفترة؛ وأولها رسالة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة باريس، وعنوانها: "الفن الإسباني ـ المغربي من البداية حتى القرن الثالث عشر)، والثاني هو: "مسجد الأندلسيين في فاس" ١٩٤٢، والثالث هو: "الجامع الكبير في تازة" باريس ١٩٤٣.

وقد اهتم تِرّاس بتاريخ المغرب، فكتب في ذلك كتابا ضخما في جزءين، طبع في الدار البيضاء سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ بعنوان: "تاريخ المغرب من البداية حتى فرض الحماية الفرنسية" ونضر في الدار البيضاء سنة١٩٢٥[٣٦].

ـ ٢ ـ
الدراسات اللغوية للمستشرقين بالمغرب

يرى إبراهيم الكعاك أن من الواجب، على أي دراسة للغة طبيعة معينة، اعتماد متن لساني يعكس الاستعمالات اللغوية جميعها، ولاسيما منها الاستعمالات العفوية. ولذلك؛ فإن الصعوبة الكبرى التي تواجهنا في اللهجيات العربية تتمثل أساسا في أن النصوص التي وصلتنا، عن اللغة العربية، بمختلف نوعياتها، من المراحل التاريخية السابقة، ليست نصوصا تلقائية؛ بقدر ما هي مواد لغوية "متوارثة"، مثل قصائد الشعر الجاهلي، يتم تناقلها من مستعمل إلى آخر، يوما بعد يوم، وجيلا بعد جيل[٣٧].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويضيف الكعاك أن على اللهجيات العربية، إن كانت تتوخى بلوغ مقاربة شمولية لطرق استعمال هذه اللغة، أن تنجز مراجعة نقدية للفكر اللغوي الكلاسيكي؛ وأن تعمل، في الوقت نفسه، على استكمال المتن اللساني، باعتماد معطيات جديدة غير تلك التي انطلق منها علم اللغة التقليدي[٣٨].

ولاشك في أنّ القيام بدراسة تاريخية للدارجة المغربية تبدو مهمة صعبة، سواء بالاعتماد على علم القواعد التاريخي[٣٩]، أو علم اللغة التاريخي[٤٠]، أو علم الأصوات التاريخي[٤١]، خاصة إذا ما كانت الدراسة تهدف الاعتماد على حقب زمنية بعيدة. فحسب جيروم فإن المصادر المتاحة للمنطقة المغاربية كثيرة، إلا أن المشكلة تكمن في عدم الاهتمام بهذه المصادر ودراستها كما قام بذلك الباحثون في المنطقة الشرقية للعالم العربي[٤٢].

وبالعودة إلى المغرب، نجد أن بعض آثار العربية المغربية وجدت في مصادر مكتوبة قديمة، منها ما ألفه المغاربة أنفسهم، ومنها ما حضر في دراسات وأعمال المستشرقين والمستعربين.

لقد شهد المغرب كباقي دول شمال إفريقيا اهتماما بالغا بالعامية المغربية عند المستشرقين، ظهر ذلك في البحوث والدراسات المنجزة في جميع المجالات التاريخية والأنثربولوجية والإثنوغرافية والسوسيولوجية واللسانية، من قبل أعلام الاستشراق على اختلاف مدارسهم ومناهجهم، وإن كان الحضور الفرنسي بارزا في هذا الباب خاصة بعد التمرس الأكاديمي الذي زاولوه بالجزائر، إلا أن اللافت عند رصد مسار التطور التاريخي هو البداية المبكرة للاهتمام العلمي بهذا المجال المرتبط في بعض جوانبه بالأندلس خصوصا عند المستعربين الإسبان، إذ أنجزت في هذا السياق مجموعة من الدراسات المعجمية المتناولة للألفاظ العامية المغربية والمتمركزة بشكل أساس على شمال المغرب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويرجح كانتيو أن الدراسة العلمية للعربية المغربية قد بدأت في نهاية القرن التاسع عشر، وبالتحديد مع أعمال الباحثين Socin وFischer و Kampff Luderitz، فضلاً عن دراسات قام بها مجموعة من الفرنسيين والإسبانيين، ورغم أن هذه الأعمال قد تواصلت على امتداد النصف الأول من القرن العشرين، فهي لم تكن دراسات لغوية كاملة عميقة، إذ لم تشتمل على نصوص وافرة ولا على معجم لغوي تام، لأنّها كانت مسخرة لتعليم العسكريين والمدنيين الذين استقروا في المغرب أثناء الاحتلال(٤٣).

ويرى محمد بنشريفة أن ما يلفت النظر ويدعو إلى الانتباه إقبال الباحثين الأجانب على دراسة العاميات العربية واهتمامهم بتدوين ألفاظها ونصوصها، وليس ذلك الإقبال وهذا الاهتمام مما ظهر في العصر الحديث، وإنما وجد منذ عهد بعيد(٤٤).

وسنحاول التطرق في هذا المبحث إلى أبرز المستشرقين الذين اهتموا بدراسة العربية المغربية:

ـ **دومباي** Franz Von Dobmbay (١٧٥٨ـ١٨١٠)، ترجمان نمساوي، كان يتقن اللهجة العربية في المغرب. له كتاب بعنوان: "نحو اللغة المغربية العربية مع استعمالات اللغة العامية" « Grammatica Linguae Mauro-Arabicae juxta vernaculi Idiomatis Usum » الذي ظهر سنة ١٨٠٠. وقد اقتصر فيه على لهجة أهل طنجة (المغرب). ويعد كتابه هذا أول بحث مفرد في اللهجة المغربية وأول إسهام علمي في البحث في اللهجات العربية، كما صنف بالألمانية "فلسفة العرب والفرس والترك"، و"اللهجة العربية المغربية"، ونشر بالعربية "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن أبي زرع(٤٥).

ـ **فشر (أوجست)** August Fischer (١٨٦٥ ـ ١٩٤٩) مستشرق ألماني

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اختص باللغة العربية: نحوا وصرفا ومعجما، مواصلا الدرب الذي بدأه أستاذه اللغوي هينرش ليبرشت فليشر.

عمل في "معهد اللغات الشرقية" في برلين من خريف ١٨٩٦ إلى ربيع ١٩٠٠ مدرسا للغة العربية وأمينا للمعهد ومحافظا لمكتبته. وفي هذه الفترة أتقن لغة التخاطب العربية، وخصوصا اللهجة المغربية بفضل معونة مدرس للهجة المغربية يدعى السيد الجيلاني الشرقاوي. وكانت ثمرة ذلك مقالات عدّة عن اللهجة المغربية، بدأها بمقالة جمع فيها أمثالا مغربية (نشرها في MSOS ج١، ١٨٩٨ ص ١٨٨ ـ ٢٣٠)، وعنوان المقالة: "أمثال مراكشية"، وتلاها ببحث عن : "نغمة الكلام في اللهجة المراكشية"، وعن "ظاهر (أو ظهير) في اللهجة المراكشية"ـ كما كتب مقالا عن "الوالي المراكشي الكبير عبد السلام بن مشيش". وقد كان فشر شديد الاهتمام باللهجات العربية الحية، لأنه كان يعتقد أنه سيستطيع أن يستخلص منها ليس فقط نظرات قيمة في سر اللغة العربية، بل أيضاً في فهم اللغات السامية بوجه عام.

وقد كان أول اتصال له بالعالم العربي رحلته إلى المغرب التي قام بها في أواخر صيف وفي خريف ١٨٩٨، زار في أثنائها طنجة، والدار البيضاء، وموجادور، ومدينة مراكش (٤٦).

كما خلف عددا كبيرا من الأبحاث والدراسات نذكر منها: مخارج الأصوات في اللهجات العربية، ومعجم اللغة العربية القديمة مرتبا على المصادر، الذي قضى في جمعه وترتيبه ما يقرب من أربعين سنة، وقام بنشر عددٍ من المخطوطات العربية في علوم شتى (٤٧).

ـ كولان Georges Seraphin Colin (١٨٩٣ ـ ١٩٧٧) مستشرق فرنسي أمضى دراساته الأولى في مدرسة رابليه Rabelais، وبعد حصوله على الباكالوريا سنة ١٩١١ انتقل إلى باريس حيث دخل مدرسة اللغات الشرقية الحية، وحصل منها في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١٩١٣ على دبلوم في العربية الفصحى، واللهجات العربية في المشرق.

وفي ١٩١٧ استدعاه الجنرال ليوتيه، حاكم مراكش، للعمل في مراكش، بناء على توصية من مدير مدرسة اللغات الشرقية Paul Boyer. فعمل أولا في الجيش الفرنسي المقيم في تازة، ثم انتدب ترجمانا مساعدا في مصلحة الاستخبارات سنة ١٩١٨. وهناك مجموعة من الأبحاث والكتب التي خلفها، نذكر منها:

ـ "تعليقات تتعلق باللهجة العربية في شمالي منطقة تازة" ـ ١٩٢٠.

ـ "تحفة الأحباب، معجم في المادة الطبية المراكشية" بالاشتراك مع الطبيب رينو Renaud ١٩٣٤.

ـ "وثائق مراكشية تفيد في تاريخ الداء الفرنجي" (الزّهري) ـ ١٩٣٥.

ـ "مختارات مراكشية" ـ ١٩٣٩.

ـ "الحياة المراكشية"، وهو مجموع من النصوص الاتنوغرافية باللهجة العامية المغربية ـ ١٩٥٣.

وواضح أن اهتمام كولان الأساسي هو دراسة اللهجات العربية العامية في (مراكش) المغرب، وكان يستعين في ذلك ببعض المغاربة، ومنهم سي أحمد لأنّه من مراكش، وسي بن داوود من الرباط. وفي الوقت نفسه كان يتقن اللغة الأمازيغية بلهجاتها المتفرقة.

ويرى كولان أنه قبل وصول بني هلال إلى المغرب، كان حضور العربية المغربية المحكية في المدن الشمالية والمناطق والقبائل التابعة إليها كما كانت تشبه العربية المنتشرة في الأندلس. الشيء الذي حرك كولان وأغراه بالدراسة والبحث في مستويات التشابه والاختلاف بين العربية المغربية للقرون الوسطى و العربية الإسبانية(٤٨).

وفي هذا المجال أيضا نشر مقالات عدة في مجلة Hespéris التي كان يصدرها "معهد الدراسات العليا" في الرباط تتناول الاشتقاقات المغربية. وقد تناول فيها بعض

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الألفاظ المغربية واقترح لها اشتقاقات وأصولا، وبين تواريخها وما طرأ عليها من تغيرات(٤٩).

كما عني بإسبانيا الإسلامية، خصوصا باللهجات العربية المحلية هناك، وأمضى سنوات طويلة في تحقيق ديوان الزجال الأندلسي "ابن قزمان". وكان في عزمه أن يجعل من تحقيقه رسالة للدكتوراه، إلا أنه لم يتم دراسته لأنه وجد أن كثيراً من المواضع فيه لا تزال غامضة. غير أنه ترك بين أوراقه تحقيقا لمائة وتسعة وأربعين زجلا من هذا الديوان، مع ترجمة إلى الفرنسية، وتحليل للأوزان التي استخدمها ابن قزمان في أزجاله، وكذلك دراسة للغة ابن قزمان ولمجموع إنتاجه. وهو الذي كتب مادة "ابن قزمان" في الطبعة الثانية من "دائرة المعارف الإسلامية"(٥٠).

ـ **ليفي بروفنصال** Evariste Levi provençal (١٨٩٤ – ١٩٥٦) مستشرق فرنسي اشتهر بأبحاثه في تاريخ المسلمين في إسبانيا. تتلمذ على رينيه باسية René Basset وجيروم كركوكبينو، وتردد بين اتجاهي هذين الأستاذين: الدراسات العربية والدراسات الرومانية.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى التحق بالجيش الفرنسي في الشرق، وجرح في معركة الدردنيل الشهيرة، فأرسل إلى مدينة الإسكندرية للعلاج من جراحه، فلما شفي منها أرسل إلى مراكش حيث عهد إليه بقيادة موقع في وادي ورجلة بالقرب من حدود الريف في المغرب فكان لهذا أثره الحاسم في تحديد اتجاهه، إذ اختار الدراسات العربية الإسلامية نهائيا.

وفي ١٩٢٠ عين أستاذا في "معهد الدراسات العليا بالرباط" وراح يعد رسالتين للحصول على دكتوراه الدولة، فانتهى منهما وحصل على الدكتوراه في ١٩٢٢ برسالتيه هاتين وعنوانهما:

١ـ "مؤرخو الشرفاء: بحث في كتب التاريخ والسير في مراكش من القرن ١٦ إلى القرن ١٧" (باريس، عند الناشر Leroux، ١٩٢٢، في ٣٧٠ ص).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢ـ "نصوص عربية من ورغة: لهجة جبالا(في شمال المغرب)، باريس ١٩٢٢ عند الناشر Leroux في ٢٨٥ ص وخريطة".

لكن اهتمامه بالمغرب ولهجاته ما لبث أن اتسع حتى شمل إسبانيا الإسلامية، لأنه أدرك أنه لا يمكن الفصل بين تاريخ المغرب وتاريخ إسبانيا الإسلامية(٥١).

كما خلف أعمالا نذكر منها: التقويم التاريخي لمطبوعات فاس، والدين وإكرام الأولياء والجمعيات الدينية في شمال المغرب، وتاريخ إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر(٥٢).

ـ **طيلكوط ويليامز** : Talcott Williams حل بالمغرب سنة ١٨٨٩ من أجل غرض علمي، فالتمس القنصل العام من المخزن تسهيل مهمة هذا "العالم العضو بإحدى الجمعيات العلمية بواشنطن" من أجل تجول الدكتور طيلكوط بوزان والقصر الكبير وفاس ومكناس والرباط وسلا وغيرها من المدن(٥٣). وقد نشر سنة ١٨٩٨ دراسة عن اللهجات المغربية بعنوان " the spoken Arabic of North Morocco "(٥٤).

وقد قام ويليامز برحلتين إلى المغرب، بعدما اكتسب العربية السورية في فترة الصبا، وحاول تقديم دراسة للهجة العربية المغربية والمنطقة المجاورة.

وكان أول ما لحظ في العربية المحكية في شمال المغرب اختلاف النطق عن عربية سوريا، مع اتجاه إلى تقصير الكلمات، وإلغاء المقاطع والمقطع الأخير من الكلمة وهو شيء يساعد على التغيير التام للعديد من الكلمات.

كما لحظ ويليامز شحذ وتقصير للحركات وحروف العلة؛ فمثلا ضَرَبَ تُنطق ضْرْبْ، أما بَحْرٌ فتصبح بْحَرْ في تقليص واضح لمقاطع الكلمة.

وقد قسم ويليامز اللهجات العربية الموجودة في المغرب إلى ثلاث: عربية المدن، وعربية القرى، وعربية المناطق الجبلية التي تبقى غير مفهومة لمن يتحدث العربية في المناطق الساحلية(٥٥).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

* هوامش البحث *

(١) مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، ج ٤ ، ١٩٨٩، ص ١٣٢٦.

(٢) عبد الهادي التازي، المغرب في الدراسات الاستشراقية ابن بطوطة نموذجا، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مراكش، ١٩٩٣، ص ١١٥.

(٣) عبدالكريم غلاب، العرض التمهيدي لموضوع الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية: المغرب في الدراسات الاستشراقية مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مراكش١٩٩٣،ص٢٠.

(٤) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص ١٣٢٥.

(٥) عبد الكريم غلاب، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٦) نفسه، ص ٢٩.

(٧) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص ١٤٩٣.

(٨) نفسه، ص ١٤٩٨.

(٩) نفسه.

(١٠) نفسه، ص ١٤٩٩.

(١١) اسم الكتاب ورد بموقع: « Timbouctou : voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan » Wikipedia .

(١٢)للمزيد ينظر، مصطفى بوشعراء: الاستيطان والحماية، ص ١٥٠١– ١٥٠٢ والرابط:
https://fr.wikipedia.org/wiki/Oskar_Lenz

(١٣) مصطفى بوشعراء، ص ١٥٠٨. كما يمكن تحميل الكتاب على الرابط الآتي:
https://books.google.co.ma/books?id=vI_AAAAYAAJ&printsec=frontcover&hl=fr&source=gbs_ge_summary_r&cad=0#v=onepage&q&f=false (12- 3 – 2015).

(١٤) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص ١٥٠٨.

(١٥) نفسه.

(١٦) نفسه.

(١٧) نفسه، ص ١٥٠٩.

(١٨) يمكن تحميل الكتاب على الرابط الآتي:
www.burtoniana.org/books/1890-Marroco%20and%20the%20Moors/leared-1876-Morocco_and_the_Moors.pdf

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(١٩) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص ١٥٠٩.

(٢٠) يمكن تحميل الكتاب على الرابط الآتي:

www.gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k105356g

(٢١) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص ١٥١٣.

(٢٢) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٣، ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢٣) نفسه، ص ٥٠٢.

(٢٤) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص ١٥٢٠.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) نفسه.

(٢٧) نفسه، ص ١٥٢٣.

(٢٨) نفسه، ص ١٥٢٤.

(٢٩) نفسه.

(٣٠) الاطلاع ١٣-٠٣-٢٠١٥ يمكن تحميل الكتاب على الرابط الآتي:

www.gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k5802242k/f6.image

(٣١) مصطفى بوشعراء، نفسه.

(٣٢) نفسه، ص ١٥٢٥. كما يمكن تحميل الكتاب من :

www.gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k6209780x

(٣٣)ن فسه، ص ١٥٢٧. الاطلاع بتاريخ ١٣ مارس ٢٠١٥وينظر الموقع:

www.wikipedia.org/wiki/Henri_Regnault ،.

(٣٤) نفسه، ص ١٥٣٠. الاطلاع بتاريخ ١٣ مارس ٢٠١٥. وينظر الموقع :،

www.fr.wikipedia.org/wiki/René_Basset

(٣٥) نفسه، ص ١٥٣٢.

(٣٦) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص ١٥٤ـ ١٥٥.

(٣٧) إبراهيم الكعاك، الدارجة العربية من خلال برديات أقباط مصر، مختبر اللغة والمجتمع، جامعة ابن طفيل، ٢٠١٢، ص ٢.

(٣٨) نفسه.

(٣٩) يقوم على دراسة قواعد اللغة؛ أيا كانت هذه القواعد عبر مراحل تطورها التاريخي.

(٤٠) يدرس التطورات التي تحدث للغة ما عبر فترة من الزمن، ويقابله علم اللغة الوصفي الذي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يصف الكلمة كما هي.

(٤١) العلم الذي يقارن بين أصوات لغة من اللغات في مراحل من تطورها عبر الزمن.

(٤٢) إجريت هذه الدراسة في ضمن مشروع بحث حول اللغويات الاجتماعية في الغرب الإسلامي (شبه الجزيرة الإيبيرية وشمال إفريقيا)، وينظر:

Jérome Lentin, Recherches sur l'histoire de la langue arabe au Proche-Orient à l'époque moderne, 1997 .

(43) Jean Canineau, Chronique linguistiques et dialectologique : la dialectologie Arabe, Orbis, TomeIV, 1955, P1.

محمد بن شريفة، حول معاجم اللغة العامية المغربية عرض تاريخي، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عدد ٨٩ مارس١٩٩٩، ص ١٣٥.

(٤٤) نفسه.

(٤٥) أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٢٦٦. خير الدين الزركلي، الأعلام "دمباي".

(٤٦) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

(٤٧) العقيقي، مرجع سابق، ص ٧٧٠.

(48) Voir : Angeles Vicente , sur la piste de l'arabe marocaine dans quelques sources écrites anciennes (du XII au XVI siécle) , p 2.

(٤٩) نفسه.

(٥٠) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٥١) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص ٥٢٠-٥٢٢.

(٥٢) للمزيد ينظر: العقيقي، المستشرقون.

(٥٣) مصطفى بوشعراء، مرجع سابق، ص ١٥٤٠.

(٥٤) عبد الله العروي، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية ١٨٣٠ـ١٩١٢، المركز الثقافي العربي، ص ٣٨.

(55)www.forgottenbooks.com/readbook_text/Biblia_Devoted_to_Biblical_Archaeology_and_Oriental_Research_v11_1000104952/237 (12 – 03 – 2015).

❊❊❊

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com